التدين الشعبي بقبائل شمال المغرب "دراسة سوسيو أنثروبولوجية ميدانية" (قبيلة أنجرة أمودجا)

Popular religiosity in the tribes of northern Morocco, "A socio-anthropological field study" (Anjara tribe as an example)

إعداد الدكتور/ محمد قروق كركيش

أستاذ فلسفة وباحث متخصص في علم الاجتماع الديني بمختبر التاريخ والمجتمع، جامعة ابن طفيل، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، القنيطرة، المغرب

Email: mohamad.kirkich@gmail.com

ملخص الدراسة بالعربية:

اهتمت هذه الدراسة بالتدين الشعبي الممارس على مستوى قبيلة أنجرة الجبلية شمال المغرب، بغرض الكشف عن تجلياته كما يمثل واقعا وكما يستثمر سلوكيا من قبل الأفراد، وذلك من خلال دراسة جملة من الممارسات، والمعتقدات التي تكشف عن نظام ديني خاص، معتبرة أن التدين الشعبي هو كل الممارسات والمعتقدات التي يعتقد الناس أنها دينية ويتعاملون معها على هذا الأساس، لذلك حاولت الدراسة أن تجيب على الإشكالية المركبة التالية: ما هي أنماط وتجليات التدين السائدة في قبيلة أنجرة شمال المغرب؟ وما هي طبيعة الممارسات والمعتقدات الدينية السائدة؟

ومن أجل ذلك توصلنا إلى أن القبيلة تحبل بكثير من ظواهر التقديس التي تشكل أنماطا مختلفة تمثل عماد السلوك الديني لدى الأفراد داخل القبيلة:

- أولها ظاهرة تقديس الأولياء، التي تلعب أدوارا ووظائف كثيرة تتعلق بدرجة أولى بشفاء الأمراض العضوية وإبرام العقود سواء الخاصة بالملكية أو الزواج، وكذلك العهود وأدوار الوساطة والصلح بين المداشر والقرى.
- ثانيها ظاهرة الزاوية، التي تلعب أدوارا دينية تتعلق بتزكية الاحتفالات الجماعية ودعمها من أجل الحفاظ على هوية القبيلة وعدم تفتتها وتشتتها، وخصوصا في حل النزاعات بين الأفراد من جهة، وبين القرى بعضها مع بعض من جهة ثانية.

- وجود ظواهر دينية شعبية أخرى تتلخص في كثير من الأمكنة المقدسة؛ خصوصا 'الكراكير' و'الصخور' و'القبور' والأشجار' و'منايع المياه' وغيرها.
- وجود كثير من الممارسات والمعتقدات تتعلق بالسحر والثقاف والتوكال والعين واللعنة والحسد والجبان والعفاريث والسخط والرضا وهي معتقدات تدعم بقوة كل تلك الظواهر التي تعتبر بالنسبة للأفراد مقدسة، إذ تختلط طبيعتها ما بين الثقافة والدين.

الكلمات المفتاحية: الدين، التدين الشعبي، السلوك الديني، التجربة الدينية، السلوك الديني، التجربة الدينية، المعتقدات، الطقوس الدينية

Popular religiosity in the tribes of northern Morocco, "A socio-anthropological field study" (Anjara tribe as an example)

Abstract:

This study deals with the question of the people's religiousness practised in the tribe of Fahs Anjra, in the north of Morocco. It investigates its manifestations as it is represented in reality and invested behaviourally by the tribe's individuals.

This is done through the data analysis of a number of practices and beliefs that disclose a particular religious system, considering the people's religiousness as all practices and beliefs that people believe to be religious (and nothing else). Therefore, this study attempts to answer the following complex problem: what are the predominant types, manifestations of religiousness, and the nature of the religious practices and beliefs in the aforementioned tribe?

We consequently concluded that this tribe is replete with the phenomena of sacredness and thus constituting various types that represent one of the pillars of individuals' behaviour in the tribe. Most of these phenomena can be stated as follows:

- The phenomenon of canonizing, i.e. sanctifying saint people. This plays many roles (and has various functions) in constructing people's beliefs and traditions.

That is, the people of this tribe considers the saints or the holy people as a source of cure of many physical diseases, a mediator between them and Allah, and even means of solving problems related to writing contracts of properties and engagements (e.g. buying and selling, marriage, etc.).

- The phenomenon of Zawya, i.e. the saint houses of prayer (mausoleum). It plays fundamental religious roles that have much to do with recommending and supporting collective celebrations for the sake of preserving the identity of the tribe and not fragmenting it, particularly in resolving conflicts between individuals, on the one hand, and between villages on the other hand.
- There are also other popular religious phenomena represented by the existence of many holy places, namely: *Karakir*, rocks, tombs, trees, water sources, and many others.
- Finally, there are many practices and beliefs associated with magic, the spell of the evil eye, cure, envy, demons, discontentment, and contentment. These are some beliefs that strongly support those phenomena that are considered to be sacred by individuals in the sense that its nature is nothing but a mixture of culture and religion.

Keywords: Religion, popular religiosity, religious behavior, religious experience, religious behavior, religious experience, beliefs, religious rituals

تقديم:

بالرغم من التحولات التي عرفتها القبائل المغربية ومعها المجتمع المغربي بشكل عام، لا زالت القرى تحافظ على جزء كبير من أنماط التدين التقليدية؛ نقصد هنا تلك الأنماط المتعلقة بتقديس الأولياء والزوايا وبعض الظواهر الأخرى كالأشجار والصخور والقبور، بالإضافة إلى فضاءات أخرى متعددة، فالتدين الفردي لازلنا نجد في صلبه مظاهر خارقة يتداخل فيها السحري بالخيالي، الأسطوري بالواقعي، الخرافي بالعجائبي، فالتمثيل الاجتماعي القبائلي بالخصوص لا زال يحبل بكثير من المظاهر، يجب استخراجها لتحليلها تحليلًا موضوعيًا، لذلك فإن هذا البحث عبارة عن مدخل لدراسة الواقع الديني للمجتمع الأندلسي¹ (قبيلة أنجرة)،

¹ قبيلة أنجرة تقع بأقصى الشمال الغربي على مضيق جبل طارق والبحر المتوسط، بطونها/أرباعها تتكون من ثلاث: ربع البرقوقيين و ربع الغابويين و ربع البحراويين، وهي تحد شمالا بمضيق جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط وجنوبا بقبيلة واد الرأس (ودراس) وشرقًا بقبيلة الحوز ومدينة سبتة المحتلة التي تقع بتربها، وغربًا بقبيلة الفحص ومدينة طنجة، وهي في التنظيم الإداري الجديد تابعة لجهة طنجة تطوان الحسيمة المغربية.

فهذه الدراسة تأتي موقعة بأعين الباحث/المراقب لما يعتمل في ديناميات هذا الحقل دونما إعلان ممكن للتعاطف أو الرفض للأنماط والممارسات والتمثيلات والمعتقدات التي تلوح في الأفق ونحن نجول بين تخوم القبيلة، إنه بحث تأويلي رمزي² غرضه المسك بفائض المعنى.

إننا إذن، نتوجه لدراسة التدين الشعبي للكشف عن تجلياته كما يمثل واقعيا وكما يستثمر سلوكيا من قبل الأفراد³؛ أي سنحاول معرفة السلوك الديني داخل المجال المدروس من خلال جملة من الممارسات، والمعتقدات التي تكشف عن نظام ديني خاص، وبصفة عامة فإننا نعني بالتدين الشعبي كل الممارسات والمعتقدات التي يعتقد الناس أنها دينية ويتعاملون معها على هذا الأساس، لذلك تحاول هذه الدراسة أن تجيب على الإشكالية المركبة التالية: ما هي أنماط وتجليات التدين السائدة في قبيلة أنجرة شمال المغرب؟ وما هي طبيعة الممارسات والمعتقدات الدينية السائدة؟

أهمية الدراسة:

تبرز أهمية هذه الدراسة، في كونها تبحث في مجمل الحياة الدينية اليومية لقبيلة أنجرة الجبلية شمال المغرب، خصوصا في جانبها الشعبي، أي ما يتعلق بتمظهرات وتجليات هذا النوع من التدين، والمعتقدات والطقوس والتمثيلات المرتبطة به.

أهداف الدراسة:

نظرا لما لهذا البحث من أهمية، فإن أهدافنا بشكل عام تتمثل في:

- الكشف عن تجليات التدين الشعبي وأنماطه في قبيلة أنجرة شمال المغرب، وتشريحها وفهمها ومن ثم تأويلها، لمعرفة دلالاتها السوسيوأنثروبولوجية.

- فهم طبيعة المعتقدات والممارسات والطقوس المرتبطة بهذا النمط من التدين، لمعرفة مدى أهميتها في تنظيم حياة الناس اليومية، وارتباطاتها بالمجالات الثقافية والاجتماعية.

I. أنماط وتجليات التدين الشعبي بقبيلة أنجرة

عند استنقنا ما جادت به العينة في المقابلات الشفهية التي أعدناها، وجدنا أن تجليات التدين وأنماطه بهذه القبيلة تتنوع بتنوع فضاءاتها الطبيعية، وقد اخترنا أن نقسم هذه الفضاءات، محاولين في البداية تقديم الأنماط البارزة التي لازالت إلى اليوم لها حظوة واحترام من قبل الأفراد،

² كما دأب الباحثون في العلوم الاجتماعية بصفة عامة، فقد اعتمدنا على منهج لجمع المادة ممثلا في المقابلات التي أجريناها على العينات المدروسة، بالإضافة إلى منهج لتحليل ما جمعناه من مادة ممثلا في المنهج التأويلي الرمزي مقتفين نموذج الأنثروبولوجي المعاصر 'كليفورد غيرتز' Glifford Geertz.

³ اعتمدت الدراسة على عينة عشوائية من أجل ضمان تمثيلية صحيحة، خصوصا أن هذا النوع من العينات يتيح إمكانية إشراك كافة أفراد المجتمع بطريقة غير قصدية وحررة، إذ شملت العينة التي اعتمدنا عليها 60 مفردة موزعة بالتساوي على أربع القبيلة المدروسة (البروقيين/الغابويين/البحراويين) بمعدل 20 مفردة لكل ربع.

ولا شك كباقي تراب 'جبالَة'⁴ أن يكون في مقدمة هذه التجليات ما نطلق عليه بفضاء 'الأولياء والزوايا'، بل أكثر من ذلك وجدنا أنماط وتجليات أخرى لأشكال متعددة تخص الطبيعة الجبلية المجالية أطلقنا عليها اسم 'الفضاءات الطبيعية'؛ نعني بها الأمكنة التي تجلب أنظار الأنجريين إليها بكونها مقدسة، وبالخصوص تقديس 'الكراكير' و'القبور' و'الصخور' وبعض الأمكنة الأخرى 'كعُيون الماء/الآبار' و'الأراضي المملوكة/المَرَجَة' وبعض الآثار والبقايا لمساجد ومغارات تحظى من قبل 'الأنجريين'⁵ بنوع من الاحترام والتبجيل.

1- فضاء الأولياء والزوايا:

أ- تقديس الأولياء بأنجرة

لقد تميز فضاء الأولياء بأنجرة على مر التاريخ بكونه ظل في تجاذب، إذ نجد بقايا لأولياء يعود تاريخ وجودهم إلى ما قبل عملية الفتح الإسلامي، وهذا لا يخص فقط ظاهرة تقديس الأولياء، وإنما نجد أيضاً ونحن نتحدث عن الممارسات والمعتقدات صنفين؛ صنف ظل محافظاً على نفسه منذ ما قبل دخول الإسلام، وصنف آخر لم يظهر إلا مع توغل الإسلام بالمنطقة، فمجتمع الدراسة طبقاً للملاحظات لا يفرق بين ولي رسمي وآخر شعبي، أو بين ولي حقيقي وآخر وهمي، وإنما يتصرف ويتكيف مع الظاهرة انطلاقاً من حاجاته، وانطلاقاً أيضاً من مبتغاه من هذا الولي أو ذاك، فمجلد الأجوبة التي تحصلنا عليها كانت تجمع ما بين جميع الأولياء والصلحاء الموجودين دون تمييز؛ أي أن جميع الأجوبة تقريباً تجمع ما بين أولياء يعود تاريخهم إلى ما قبل الإسلام وأولياء ظهروا مع مجيء الإسلام. فالتمييز هنا فقط حسب وظيفة كل ولي. بل إن التقسيم اليومي للأفراد بخصوص الأولياء هو تقسيم يعود إلى وظائفهم⁶؛ وخصوصاً من التخصصات العلاجية التي يوفرونها، وليس إلى تقسيمات مجردة كتلك التي نجدها وسمت الأنثروبولوجيا الاستعمارية، والتي جرى بها العمل إلى يومنا هذا.

إننا نجد لدى الجبليين في أنجرة تمييزاً من نوع آخر؛ فهم يميزون ما بين 'الضريح' و'السيد'، فالضريح يضم بالضرورة ولياً بغض النظر عن ما إذا كان هذا الولي حقيقي أو وهمي، رسمي أم شعبي⁷، وهو يتميز أيضاً بكونه محاطاً إما بأسوار أو بقبة، أما مصطلح 'السيد' فلا نجد له لدى الأنجريين سوى معنى واحد هو أنه يكون عبارة عن قبر صغير محاط بأحجار تلون في الغالب بلون أبيض لتمييزه، وصاحبه لا يصل إلى درجة الولاية بقدر ما يكون فقط صالحاً، من هنا نكتشف أن جبالة يفرقون بين مصطلحي الولاية والصلاح، فالأولى أكثر درجة من الثانية في نظرهم، لذلك فرقنا ما بين تقديس الأولياء وعبادة أخرى تخص 'الحوش' أو 'الكركور'، فالناس يفرقون بين ذلك بتلقائية، فإذا كان الأمر يتعلق بولي يقولون: 'غَمْشِي نَزُورُ الْوَلِي فُولاني'، أما إذا كان الأمر يتعلق بصالح فيقولون: 'غَمْشِي نَزُورُ السيد فولاني'.

⁴ المنطقة المدروسة هي منطقة جبالية، تعرف عادة في المغرب بلفظ 'جبالَة' تميزها لها عن الريف و غمارة والهبط.

⁵ لفظ الأنجريين معروف في شمال المغرب يطلق حصراً على سكان قبيلة أنجرة الجبلية.

⁶ تشير هنا إلى نوع الدراسات التي قام بها بول باسكون، أنظر مثلاً: بول باسكون، الأساطير والمعتقدات بالمغرب، ترجمة مصطفى المسناوي، مجلة بيت الحكمة، عدد3، السنة الأولى، أكتوبر 1986، ص84.

⁷ تشير هنا إلى دراسات 'إميل دورمنغهم' وخصوصاً كتابه:

Emile Dermenghem : Le Culte des Saints dans L'Islam Maghrebin ; Édition Gallimard ; paris 1954.

إلا أنه غالباً ما يكون الولي معروفاً على مستوى القبيلة كلها، بينما الصالح أو السيد يكون صيته محلي على مستوى 'المدشر/القرية لا القبيلة ككل'، وإذا ما تعداه يمكن أن يصل فقط إلى مستوى ربع القبيلة كأقصى حد. وقد بلغ عدد الأولياء بأنجرة حسب المبحوثين ثمانية معروفين على مستوى القبيلة، يتميزون عن بعضهم البعض بوظائفهم الدينية وبتواريخ تواجدهم.

جدول رقم (1) يبين: مجموع الأولياء المنتشرين بقبيلة أنجرة إلى حدود اليوم.

الربع	المدشر	الأولياء
البحراويين	ازرارع	سيدي قنفوش
	المنار	سيدي المناري الحاج المكاوي
	الحمومي	سيدي علي بنحرازم
	طالع الشريف	سيدي ادريس بن عيسى
	الزميج	سيدي أحمد بن عجيبة سيدي عبد القادر بن عجيبة
البرقوقيين	غدير الدفلة	سيدي عبد القادر بن عجيبة
الغابويين	الخميس (كدية علي الفحل)	سيدي مسعود

ب- بركة الزوايا بأنجرة

يذكر 'محمد جندوبي'⁸ أن الزاوية في المغرب لم تعرف إلا بعد القرن الخامس الهجري، حيث انتقل اسمها من 'دار الكرامة' إلى 'دار الضيافة' ثم إلى اسمها المعروف حالياً، لكن بغض النظر عن السياق التاريخي للنشأة يمكن القول أن الزاوية طالما ارتبطت بعامل المشيخة؛ بمعنى أنها حافظت على الروابط المتينة بين شيخها المؤسس وخدامها، إلا أنه سرعان ما ستتحول كما جاء على لسان 'ديل إيكلمان'⁹ إلى إيديولوجيا قاهرة عندما سترتبط مباشرة بأدوار سياسية، حيث ستصبح الزاوية مؤسسة لاستقطاب المجاهدين والدفع بهم إلى مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية، فإذا كانت الزاوية في نشأتها معروفة بكونها تضطلع بالأدوار الدينية والتعليمية، فإن أدوارها ستغدو سياسية، لتتحول مع نهاية الاستعمار في أواسط القرن العشرين إلى أدوارها الاجتماعية الدينية التعليمية السابقة، هذه الدورة ستحكمها عوامل متعددة أهمها اندثار الأخطار الخارجية وتحكم السلطة في كل القوانين المنظمة للدولة،

⁸ محمد جندوبي، الأولياء في المغرب: الظاهرة بين التجليات والجنور التاريخية والسوسيوتاريخية، منشورات كنال أوجوردي، مطبعة دار القرويين، فاس-المغرب، طبعة 2004، ص15.

⁹ أنظر: ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب، ترجمة محمد أعفيف، سلسلة تاريخ ومجتمعات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى 1991م.

ولن نترك مؤسسة السلطان للزاوية شيئاً بعد ذلك إلى حين تصبح مؤسسة الزاوية مجمدة وغير قادرة اليوم للقيام بكامل أدوارها، ومن ثم سترتبط أكثر بمعتقدات لم تكن قبل معروفة بها أو تتدخل فيها، وبالأخص في قبيلة أنجرة، سيرتبط تأسيس الزاوية بالدين بشكل مباشر، وستكون ولادتها مرتبطة أشد الارتباط بالأولياء والشرفاء الأولين الذين عمروا المنطقة، لكن هذه الزاوية سرعان ما ستتحول إلى أدوار سياسية مع بزوغ فجر الغزو الخارجي للبلاد وللقبائل الشمالية، حيث ستظهر زوايا أخرى ليست دينية بقدر ما هي جهادية، إنه لا يمكن بتاتاً أن نفصل تاريخ مؤسسة الزاوية بشكل عام لدى جباله بتاريخ الزوايا المغربية عامة، إلا أنه يمكننا أن نحتفظ بنوع من الخصوصية، وذلك أن الزوايا القائمة على الشرفاء والأولياء ستحتفظ إلى حدود ما بعد القرن العشرين بكل أدوارها الاجتماعية في جباله، في حين ستختفي الزوايا ذات الصبغة السياسية من الوجود مع نهاية حقبة الاستعمار، وستطلعنا الوثائق التاريخية للإدارة الاستعمارية وكذلك الدراسات الإمبريالية التي حصلنا عليها، إلى أن منطقة جباله ستولد فيها زوايا متعددة لن تكون سوى صنعة الظرفية وسرعان ما ستزول كما لو أنها لم تكن.

جدول رقم (2): الزوايا بقبيلة أنجرة والتي لم يعد لها وجود إلى حدود سنة 1990.

القبيلة	اسم الزاوية	المدائر المنشرة بها
أنجرة	الزاوية الوزانية	تسود دون أن تستقر
	الزاوية الريسونية	بين الويدان، تغرامت، سوق الخميس، الخرازرة
	الزاوية البقالية	الحمة، البيوت، بو عباد، الداهر

إن قبيلة أنجرة إذن، عرفت ثلاث أصناف من الزوايا في فترات متباعدة: الأول يستمد مشروعيتها من مؤسسة الولاية والصالح ظلت أدوارها اجتماعية ودينية وتعليمية بالخصوص وبعيدة كلياً عن اللعبة السياسية، وهو الصنف السباق للظهور في القبيلة ونذكر على وجه التخصيص الزاوية 'العيساوية' و'الدرقاوية' و'التيجانية'، وبإمكاننا القول أن هذه الزوايا ظلت محافظة على أدوارها إلى اليوم، أما الصنف الثاني ظهر مع بزوغ الإستعمار ليلعب أدواراً سياسية؛ هذا الصنف يستمد سلطته من مؤسسة الزعيم، ونذكر بالخصوص الزاوية 'الريسونية' التي تنحدر أصولها من 'سيدي يونس بن أبي بكر' عم شيخ جباله قطب المغرب 'عبد السلام بن مشيش'، حيث كان الريسوني يبسط سلطته السياسية على كل تراب جباله. أما الصنف الثالث فأخذ من الصنفين، فهو يستمد مشروعيتها من مؤسسة الصلاح والولاية لكنه سرعان ما يعود لتأكيد هذه المشروعية عن طريق لعب الأدوار السياسية، ونذكر بالخصوص الزاوية 'الوزانية' التي تنحدر أصولها من 'الشريف الوزاني' و'البقالية' التي تعود أصولها إلى 'محمد بن عبد الله الحاج البقال' والتي انخرطت في السياسة حتى نسيت أدوارها الاجتماعية والدينية.

جدول رقم (3)¹⁰: صورة عامة عن انتشار الزوايا بقبيلة أنجرة إلى حدود اليوم.

القبيلة	الربع	نوع الزاوية	مقر الزاوية	عدد المريدين
أنجرة	الغابويين	العیساویة	حیضرة/الخوايم/مراح الديان	27 مريدين
		الدرقاوية	بليونش	7 مريدين
		التيجانية	عين دشيثة	27 مريد
	البحراويين	العیساویة	طالع الشريف	16 مريد
		الدرقاوية	الزميج	36 مريد
		التيجانية	الرومان/المنار	29 مريد
	البرقوقيين	العیساویة	الزوايا	10 مريدين
		الدرقاوية	غدير الدفلة	17 مريد
		التيجانية	بولعیش	34 مريد

فالصنف الأول ظل محافظاً على نفسه من الاندثار وحافظ على قدر كبير من وظائفه الاجتماعية والدينية إلى حدود اليوم وذلك لأن هذا الصنف لم يدخل في متاهات اللعب السياسية، أما الصنف الثاني فقد زال من القبيلة بزوال الاستعمار من جهة وبتمسك الدولة في قبائلها عن طريق وضع هيكلة هرمية تعتمد الأشياخ والمقدمين والقضاة والأعوان التي دمرت القوانين العرفية للسلطة السائدة في القبيلة من جهة ثانية؛ بمعنى أن زواله ارتبط بأحداث سياسية جعلت مركزه يتقلص أكثر فأكثر بمرور اليوم، أما الصنف الثالث فقد قضى على نفسه حينما تحولت أدواره الاجتماعية والدينية إلى أدوار سياسية بالخصوص، وظل يعاني في فترة ما بعد الاستقلال حينما أراد أن يعود إلى أدواره الرئيسية في القبيلة، وهذه المعاناة جعلته يتراجع حتى اندثر من القبيلة في أواخر القرن العشرين بعدما كان منتشراً في كل تراب جباله.

2- فضاء المجال والأمكنة المقدسة:

نعثر في قبيلة أنجرة على أمكنة وفضاءات طبيعية متعددة تحظى بالتقديس والتبجيل، وأغلب هذه الفضاءات عبارة عن 'كراكير' و'صخور' و'قبور' وأشجار' و'منايع لمياه' و'أراضي مملوكة/المرجة' وبعض بقايا وآثار 'المساجد' القديمة،

¹⁰ هذه المعطيات مصدرها المقابلات التي جمعناها، وهي معطيات دقيقة تمكننا من معرفة الصورة العامة لحضور الزوايا العيساوية والدرقاوية والتيجانية في قبيلة أنجرة اليوم، وقد ذكر لنا أن هناك مريدين كثر في مداشر وقرى أخرى، لكن لا يتوفرون على مكان مستقر/ زوايا فهم يحضرون 'اللمات' مع فرق أخرى داخل القبيلة وخارجها، لذلك حددنا فقط المداشر التي توجد بها تلك الزوايا.

وكل هذه الأشكال تقديس من زوايا متعددة وبأساليب مختلفة تقريباً، كما أنها لم تكن لتقدس لولا الدعم الشفوي القوي للحكايات التي تنتشر لتعبر عن أن المكان مقدس بالفعل.

تظهر 'الركاير' وتنتشر بكثرة في أرباع قبيلة أنجرة، ولا يخفى علينا أن مثل هذا الفضاء المقدس قد سبقنا إلى دراسته كثير من الأنثروبولوجيون، على رأسهم 'إدموند دوتي' الذي فصل كثيراً في هذا الشكل من أشكال التقديس، حيث يقول: "لا يقتصر مدلول كلمة كركور على أكوام الحجارة المخصصة بالتوقير، بل يشمل بوجه عام أكوام الحجارة على اختلاف أنواعها"¹¹. وقد قسم 'دوتي' الراكير إلى أصناف عدة منها: كركور 'العلامة' الذي يبقى مجرد علامة أو ذكرى ليتذكرها الناس، وكركور 'الحدادة' الذي هو عبارة عن كومة أحجار يضعها الناس للفصل بين حدود القبائل، بالإضافة إلى كركور 'المنزه' وهو الموضع الذي يقتل فيه شخص ما، وكركور يصنع 'باسم الولي' وهذا النوع يرتبط بالخصوص بولي من أولياء الله المعروفين وغالباً ما يكون موضعه الأساس، ثم كركور 'الركوبة'؛ حيث تعني هذه الكلمة المكان الذي ننظر أو نراقب منه، وكركور 'القبر' الذي عادة ما يكون مجهولاً فيقال أنه قبر لشخص كان ذا بركة. إلا أن نتائج 'دوتي' لا يمكن أن نعمها كما فعل على جميع مناطق المغرب وهذا شيء نؤاخذه عليه بشدة، فلا نجد داخل منطقة أنجرة كراكير من مثل جميع هذه الأنواع، بل نجد في القبيلة صنفين من الراكير: الأول يرتبط ارتباطاً مباشراً بآثار أولياء الله الصالحين الذين غالباً ما كانوا معروفين لدى الأفراد، يطلقون عليه اسم 'روضة سيدي فلان'، أما الصنف الثاني فغالباً ما يرتبط بقبور تكون 'لسادات' أو صالحين مجهولين، يطلق الأنجريون عليه اسم 'قبر سيدي فلان' رغم أنه عبارة عن موضع به كومة من الأحجار، عدى ذلك لا نجد أي شيء آخر يدل على معنى كلمة كركور. غير أننا نلفت الانتباه أن أهل أنجرة لا يستعملون كلمة 'كركور' إلا قليلاً جداً وعوض ذلك يقولون: 'روضة سيدي فلان' بالنسبة للصنف الأول، أو 'سيد سيدي فلان' بالنسبة للثاني، كما لا يستعملون كلمة 'حوش' التي نجدها كثيرة الاستعمال في مناطق الجنوب والوسط المغربي، غير أننا نلفت الانتباه مجدداً أن جبال الشمال الغربي في كثير من المداشر يطلقون على الكركور والضريح والقبر اسم 'سَيِّد' للدلالة فقط عن أنه مكان مقدس.

نجد إذن الصنف الأول - كركور الأولياء - بكثرة ويعود تقديسه لمجرد أنه عبارة عن مخلفات أو أثر لولي صالح معروف¹² إما على مستوى الربع أو القبيلة، يمكن أن يكون موضع خلوته أو بيته أو موضعاً يمر منه دائماً، غير أن الزيارات المرتبطة بهذا النوع غالباً ما تكون بسيطة، فمن أراد مثلاً أن يزوره ما عليه سوى أن يأتي بقطع نقود أو بيض، وإذا لم يتوفر على ذلك فمسموح له أن يقطف جزء من شجرة 'الخلانج'¹³ يضعها تحت حجرة من أحجار الكركور حتى تظل هناك. أما الصنف الثاني من الراكير فهي منتشرة أكثر في أنجرة من الصنف الأول، وذلك راجع إلى أنهم يقصدون السادات بشكل مذهل، حتى أننا يمكن أن نجد أكثر من ثلاث كراكير بمدشر واحد على الأقل، وهذه سمة تطبع غالبية المداشر بأنجرة، وبالخصوص تلك التي تمتلك قدراً كبيراً من التوسع مجالياً، لكن غالبية هذه الراكير غير معروفة،

¹¹ إدموند دوتي، مراکش، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مرس، مطبعة أبي رقراق، الرباط-المغرب، طبعة 2011، ص 61-70.

¹² أنظر:

Edouard Montet :le culte des saints dans L'Afrique du Nord et plus Spécialement Au Maroc ; Librairie George & Cie ; Genève ; 1909.

¹³ شجر الخلانج هو عبارة عن نبات لا يتعدى المترين ينتشر في أعلى قمم الجبال، لونه ميل إلى الأخضر وله رائحة طيبة ومعروفة.

يقول أهل المنطقة أنها كانت قبور لرجال صالحين مروا من هناك في فترات زمنية متباعدة، وقد تكون أيضاً حقيقية أو وهمية، لكن طبقاً لملاحظتنا فأغلبها غير حقيقية، وفي الجانب الآخر فنحن لا نقول أن جميع تلك الكراكير وهمية أو هي بمثابة علامات، لأن بعضها لازال كما هو ويمكن أن يكون بالفعل مكاناً لرجل صالح ما، وزيارتها ليست واجبة كما نرى مع المقدسات الضرائحية، لكنها تزار لغايات مختلفة مثل الزواج أو طلب الصحة أو الشفاء من الأمراض العضوية والنفسية.

وغير بعيد عن تقديس الكراكير، يقدس الأنجريون بشكل ملفت للنظر القبور¹⁴، التي غالباً ما يقال أنها لأسياد هم في الغالب غير معروفين، لا تاريخ لهم، كما أن صيتهم لا يتعدى في الغالب المدشر حيث يوجدون، وبإمكاننا القول أن القبور المقدسة تنتشر بكثرة في أنجرة، حتى أننا نجد قبرين على الأقل يحضون بنوع من الوقار والتبجيل في كل مدشر من مجموع مداشر القبيلة، وغالباً ما يكون لهذه القبور علاقة بشفاء الأمراض أو بطلبات الزواج أو طلب الأطفال وفك العقم أو بتدبير الأحداث اليومية، وفي الغالب أيضاً ما نجد قبوراً تستعمل لأغراض 'شيطانية' كفك أو عقد قضايا سحرية تخص قضايا 'الربط أو الفسخ أو التقاف أو التابعة أو العين' أو غير ذلك من القضايا المعروفة.

وإذا كان أهل أنجرة يقدسون الزوايا والأولياء والقبور والكراكير فإنهم من جانب آخر يقدسون 'الصخور'¹⁵، لكننا طيلة جولتنا بأنجرة لم نجد هذه الظاهرة منتشرة بكثرة، إنها قليلة بالمقارنة مع ظواهر أخرى، وما أثار انتباهنا أن جميع الصخور المقدسة بأنجرة تحمل أسماء غير ذكورية، بمعنى أنها أسماء مرتبطة بنساء، كحجرة 'لالة أمباركة'¹⁶ وحجرة 'لالة الزطمة' وغيرها، ما يجعلنا نقول أن حضور المرأة كفضاء مقدس في أنجرة لا يتعدى الجانب العلاجي، فلم يعطيها المجتمع الحق في أن تصبح ولية عالمة أو معروفة.

وغير بعيد عن ذلك نجد لدى جباله بالقبيلة أشكال أخرى من الأمكنة الطبيعية المقدسة، يتعلق الأمر هذه المرة بنقاط الماء، لكننا في هذا الشكل نجد صنفين من التقديس: الأول يقدس لأنه مفعم بالبركة، وغالباً ما يرتبط بالأولياء، أما الثاني فلا يقدس لأن به بركة، ولكنه يحظى بالاحترام لمجرد أن أرواحا تسكنه 'كالبجان والعفاريث'.

¹⁴ في مدشر 'بني عتاب' التابع لفرقة ربع البرقوقيين يوجد قبر لرجل صالح يدعى 'سيدي الدُّنْدُن' وهو حسب أهل القرية مختص في علاج الأمراض العضوية سواء الخاصة بالإنسان أو بالحيوانات، فما على الزائر إلا أن يأتي مساء يوم الجمعة وأن يأتي 'بالزيارة'، إما قطع نقود أو بيض أو قريان على شكل ديك أو دجاجة، فيقف أمام القبر ويقدم 'الزيارة' عند رأس المدفون بالقبر فيتوسل بالدعاء ثم يأخذ حفنة تراب فيرشها حيث موضع المرض أو إذا كانت الحيوانات يأخذ تلك الحفنة من التراب فيرشها على موضع المرض أو الجرح فيشفى.

¹⁵ تشير هنا إلى ما كتبه 'هنري باسي'، أنظر:

Henri Basset :Le Culte des Grottes au Maroc ;Ancienne maison Bastide/Jourdan ; édition Carbonel ; Alger ; 1920.

¹⁶ في مثال صريح لهذه الظاهرة نعثر في مدشر 'واد المرسى' التابع لربع البحراويين، على صخرة معروفة منذ القدم لدى الأنجريين بأنها مقدسة تدعى تارة 'بحجرة لالة أمباركة' وتدعى في مصادر أخرى 'بحجرة البركة' والتي تقع أسفل جبل موسى عند موضع بالبحر يسمى 'الصخرة' حيث التقى الخضر وسيدنا موسى عليه السلام ووقعت لهم القصة المعروفة. يذكرها مؤرخ تطوان محمد داود في كتابه فيقول: حجرة البركة موجودة بواد المرسى تحت جبل موسى، يقال أنها صخرة سيدنا موسى مع الخضر، وفيها أثر الحوث. أنظر: محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الحادي عشر، منشورات تطواين أسمير، تطوان-المغرب، طبعة 2009، ص 17.

فجبالة يطلقون على الصنف الأول اسم 'الحامّة'، لكن ليس بالمعنى الشامل لأننا سنجد 'عيون الماء' تسمى بأسماء غير ذلك¹⁷، فبالنسبة للمصادر المائية التي ترتبط بالأولياء فالأغلب أنها تقدر لأن الولي أخذ من منبعها أو توضعاً من مائها، أو غسل بها، ليجعلها الناس فيما بعد مقدسة بدعوى أن بركة الولي انتقلت إليها، أما فيما يخص الأمكنة المائية التي تدعى عادة 'بالحامة'¹⁸ فتقدّر نظراً لأنها تقدم خدمات اجتماعية علاجية بالخصوص. فتقدّيس المصادر المائية كما رأينا يعود إلى عاملين، إما أن تلك المصادر ارتبطت بولي من الأولياء الصالحين، وإما أنها ارتبطت بوظيفة معينة تكون في الغالب علاجية.

من جهة أخرى نعثر على نوع آخر من الظواهر الطبيعية المقدسة، يتعلق الأمر بآثار المساجد القديمة التي تحاك حولها مجموعة من الأساطير والروايات الخارقة، ليس لأنها تؤدي وظيفة دينية، بل تقدّر لمجرد أن أحداثاً خارقة تحدث داخلها، ويطلق الأنجريين على مثل هذه الظاهرة اسم 'لالة الجامع/الجويمة'¹⁹، حتى أن الاسم الذي يطلقه الأنجريون على المسجد في هذه الحالة يدل دلالة قطعية أنهم يجعلون منها روحاً تتحرك، لذلك يطلقون عليها لقب 'لالة الجامع'، فالمصطلح 'لالة' له دلالة تتخذ صفة إنسانية لها روح معينة تتحرك في الفضاء الطبيعي، وقد سبق 'الإدوارد فستر مارك'²⁰ أن تحدث عن الأنجريين حينما اعتبر أنهم يتميزون بكونهم يطوعون الظواهر الطبيعية لصالحهم تحت ما سماه 'بأنسنة البيئة الطبيعية'²¹؛ أي إضفاء صفات إنسانية تتحرك على أمكنة جامدة لا تحرك ساكناً قصد استغلالها لأغراض تكون في الغالب تمس الظروف المعيشية للأفراد.

نفس الشيء يمكن أن ينصرف على نمط آخر من أشكال التقديس بالمنطقة، يتعلق الأمر 'بالأرض'، فلما كانت 'الأرض' بوفرتها وقيمتها في المجتمع القروي شيئاً مهماً، شكلت كياناً مستقلاً يتمتع بطقوس أخرى متميزة، إن الأمر في ذات السياق لا يتعلق بأرض مزروعة أو محصودة أو شيء من هذا القبيل، إن الأمر يتعلق بما يسميه الأنجريون 'بالأرض المملوكة' أي تلك الأرض التي كانت تزرع لكن توقفت بفعل أن الأرواح قد سكنتها،

¹⁷ تشير هنا إلى 'عين النشور' بمدشر الحمومي بسبيدي علي بن حرازم و'عين الرحمون' بمدشر الداهر و'عين الرمل' برقع فرقة البحراويين التي تدأوي الأم الصدر والقلب والأمعاء وغيرها من الأمكنة.

¹⁸ نجد أمثلة كثيرة لذلك من بينها 'الحامة' الموجودة في مدشر 'بني عتاب' من فرقة ربع البرقوقيين، وقد جاءت في خندق يخرج منه ماء طبيعي، فقبل لنا أن هذه الحامة تخصص لعلاج الأطفال، لكن توجد بقربها شتائل أشجار صغير تربط النساء به أعطيت الرأس طلباً في الزواج، لكن الحامة تعرف بالخصوص بكونها تعالج الأطفال من عدة أمراض؛ فإذا تعلق الأمر بأمراض داخلية كارتفاع درجة الحرارة مثلاً فلا بد أن يشرب الطفل من مائها فيشفى، أما إذا تعلق الأمر بأمراض خارجية وبالأخص عضوية كمرض 'الالتهاب الجلدي' مثلاً فيؤخذ من ترابها المبلل ليوضع في أماكن المرض، فزيارة هذا المكان المقدس أيضاً يتمنى الزائرون أن يتزوجوا وينجبوا أطفالاً، فالحامة كطبيب متعدد الاختصاصات لكن يبقى عمله الرئيسي هو أن يشفي الأطفال من أمراضهم، وتكون الزيارة بسيطة في الغالب تضم نقوداً أو حناء أو قطع من الشمع أو أثواب أو بيض.

¹⁹ لالة الجويمة أو الجامع هو مصطلح محلي خاص بنجد لدى الأنجريين للدلالة على أن المسجد القديم تسكنه روح تتحرك داخله، وليس في علمنا أن نجد مثل هذه الظاهرة في قبائل جبلية أخرى.

²⁰ نحب أن نشير هنا إلى كتاب فيستر مارك حول الزواج يتطرق في جزء منه لقبيلة أنجرة:

Edward Westermarck :Marriage Ceremonies in Morocco ; Curzon Press ; London (sans date).

²¹ أنظر :

Eva Evers-Rosander : Some Wedding Customs in Qbila ANJRA Now (1976-1987) and Then (1900-1910) Comparisons and Reflections Based on Westermarck's ; Books "Westermarsk et a societe Marcaïne" Université Mohammed 5 Faculté des lettres et des Sciences Humaines ; Colloques et Seminaires N° 27 ; Imprimerie El Maarif Al Jadida ; Rabat-Maroc.

وهذه الأرواح تصيب كل من تجرأ على لمس الأرض أو زرعها. إن هذه الظاهرة ولو أنها غير منتشرة بكثرة، لكنها موجودة، تشكل بالنسبة لنا موضوعاً يمكن الحديث عنه في إطار تقديس الظواهر والأمكنة الطبيعية. وتتماهياً كما سلف الحديث عن 'المجاري ونقاط الماء' يمكن أن ينصرف نفس الحديث عن 'الأرض المملوكة' من جهة أو 'المرجة' من جهة ثانية كونها أرضاً مائية غالباً ما يسكنها 'الجنون والعفاريت'. فمثل هذه الظواهر لا تصل إلى مستوى 'العبادة' لكنها تظل فقط موضع تقديس حذر، تقديس بنكهة الخوف لتجنب الضرر.

II. ممارسات ومعتقدات مقدسة بالمجتمع الأنجري

1- الممارسات المقدسة بقبيلة أنجرة

كثير من الممارسات تحضر في المجال المدروس تتخذ صبغة مقدسة، تتبع من صلب التقاليد الضاربة في التاريخ، هذه الممارسات كثيرة ومتنوعة، نجد على رأس هذه الممارسات 'العمارة' بتسكين العين، التي تعتبر أعظم احتفال ديني لدى الأجريين خاصة وجبالاً بشكل عام، فالعمارة لا تتعلق بطقوس زراعية كما نرى في بعض المواسم، لكنها تتعلق بزيارة قطب الأقطاب بالمغرب وشيخ جباله 'مولاي عبد السلام بن مشيش'،

هذه الزيارة تكتسي طابع الولاء الذي يظل الرابطة الوحيدة القوية بين كل الجبليين بالمنطقة الشمالية، لذلك سمي الاحتفال به 'بالعمارة'²². يقول الإسباني 'خينارو أورياني': "فالكل في المنطقة المباركة التي تحيط بضريحه، ينتمي لمولاي عبد السلام الذي يعتبر الأكسجين الذي يعطي الحياة لسكان جباله، والأرض التي تمنح الخيرات (..) وهو القوة للتغلب على الأرواح الشريرة، وهو الملاذ لطلب الاستسقاء عند ندرة الأمطار والجفاف"²³. فالمفهوم 'عمارة' حسب العينة له ثلاث معاني: المعنى الأول يفيد أنها سميت كذلك كونها بمثابة موسم الحج الأصغر بالنسبة للفقراء؛ أي ما يعادل 'العمرة' في الشرق، فهم يقولون أن الذي لم يستطع الذهاب إلى الحج عليه أن يعتزم في جبل العلم، أما المعنى الثاني وهو الأقرب في نظرنا إلى الحقيقة لكثرة تداوله شفهيًا، يعتبر أن المصطلح يأتي من 'التعمير' وبالضبط من الجذر 'عَمَرَ'؛ بمعنى أنها سميت كذلك حسب تعبير أحد الأنجريين: 'لَتَعْمَارُ بُجْبَالَةَ كَامِلُنْ'؛ أي نسبة إلى 'الامتلاء'، أما المعنى الثالث فيقول أنها سميت كذلك كونها مناسبة لتجديد 'العُمْر'، حيث يعتقد الأنجريون وسائر جباله أن زيارة القطب هي التي تحدد من سيموت أو يعيش في السنة المقبلة، لذلك سميت بذلك الاسم، فزيارة القطب واجبة حتى يغسل الفرد ذنوبه ويتضرع إلى الله. على أن العمارة تبدأ زمناً في فجر الفاتح من شهر يوليوز من كل سنة، وكانت في الأيام السابقة تظل مستمرة زهاء الأسبوع، ثم تقلصت إلى ثلاثة أيام،

²² تلفت الانتباه أن 'العمارة' لا تعادل 'الموسم' بالنسبة للأفراد، فالجبليون يطلقون التسمية الأخيرة على الاحتفال البسيط والذي غالباً ما يتعلق بأولياء لا يصل صيته إلى قطب جبل العلم كموسم 'سيدي ادريس' بمدشر طالع الشريف أو موسم 'سيدي علي' بمدشر الحمومي أو موسم 'سيدي أحمد بن عجيب' بمدشر الزميج مثلاً، أما الاسم الأول فلا تجده ينطق إلا على الاحتفال الذي يخصه جباله لهذا القطب الرياني في صيف كل عام.

²³ خينارو أورياني، الروابط الدينية بجباله ومختلف طوائف الشرفاء: الزوايا والأضرحة، ترجمة عبد العزيز العياشي، مطبعة سبارتيل، الطبعة الأولى 2010م، ص24.

حتى صارت اليوم يوماً واحداً، حيث يتجمع الناس في أسفل الجبل في مواكب صاخبة، وهم يصعدون بين جنبات الجبل تسمعهم يرددون 'الصلاة والسلام' والزغاريد تنتشر هنا وهناك، وفي بعض اللحظات تسمع النساء يرتلن ما يسميه جبالة 'بالعيوع'²⁴.

بالإضافة إلى العمارة تشكل 'العنصرة' ممارسة طقوسية بامتياز لدى جبالة، لكن عادة يختلط علينا الأمر ونحن نحاول أن ندرس هذا النوع من الممارسات لدى جبالة، وخصوصاً ما بين 'العنصرة' و'الحاكوز' و'ينأير' و'العام أجديد'، ذلك أن السكان يخلدون عدة احتفالات ذات طابع طقوسي وذلك وفق رزنامة مضبوطة نابعة من التقويم الفلاحي بالأساس، والحقيقة أن 'الحاكوز' و'ينأير' و'العام الجديد' لدى جبالة هي تسميات لشيء واحد، فبالنسبة 'الحاكوز' أو 'ينأير' أو 'العام أجديد' كما يحب لجبال أنجرة أن يطلقوا عليه غالباً ما يسبق العنصرة، حيث يكون الاحتفال به احتفالاً عائلياً فقط، وذلك لأن العام الفلاحي الجديد دائماً ما يبدأ في الفاتح من شهر يناير، فالحاكوز هي احتفال وممارسة أولية لبداية العام الفلاحي، أما العنصرة فهي الاحتفال الذي يعقب جني المحاصيل، وبالتالي فهي موسم الاحتفال الأكبر بالأرض وترائها، وغالباً ما كان الفلاحون في بداية 'العام أجديد' يجتمعون في الساحة الكبرى 'للدشر' وهم متأهبون للعمل الجماعي أو ما يسميه الجبليون على عاداتهم 'بتوأزة'، هذا التجمع لم يكن إلا لغرض واحد هو أن يذهبوا لحقل كل فرد أراد قلب الأرض تأهباً للحراث في جماعات ليتعاونوا فيما بينهم. وعادة يكون الاحتفال بالعنصرة في اليوم السابع من شهر يوليوز من كل سنة بالقصر الصغير، فاختيار بداية فصل الصيف ليس عبثاً بقدر ما هو بداية نضج الفواكه و الشعير والذرة والقمح والفلول وغيرها من الحبوب، ويكون الجبليون قد خرجوا مجدداً في جماعات من أجل الحصاد، وهو سلوك تعاوني تضامني متميز، فالعنصرة ليست مجرد احتفال فقط بل هي ممارسة مقدسة للحصول على 'بركة الأرض' التي تعد الرأسمال المادي الرئيسي لمعيشتهم اليومية.

وغير بعيد عن 'العنصرة' يتلهف الأنجريون دائماً لدخول شهر محرم الهجري حيث يحتفلون في اليوم العاشر منه بمناسبة مقدسة؛ مناسبة دخول 'عاشوراء' أو كما يحلو لهم تسميتها 'بالعاشور'، حيث يصوم أغلب أهل المداشر هذا اليوم تيمناً به، وبعد تحضير حساء الحريرة للإفطار تتزين النساء ويلبس الرجال أثواباً جديدة، لكن النساء يعدون لليوم كما هو معهود لدى أهالي أنجرة الفطائر والإسفنج والرغيف والحلويات الجافة والخبز والبيض واللبن والحليب، في انتظار موكب الطلبة²⁵ الذين يجتمعون في 'المسيد' لينطلقوا في المدشر صباحاً يطوفون حول المنازل لطلب 'العاشور' وفي يدهم ألواحهم الخشبية المزركشة.

كما أنهم يحتفلون بعيد المولد النبوي الذي غالباً ما كان المتصوفون والعلماء يوصون بالاحتفال به نظراً للدور الخطير الذي كانت تمارسه الأعياد المسيحية، والاحتفال به ليس لأمر سوى لتكريس الشعائر الدينية الإسلامية،

²⁴ العيوع عبارة عن نداء متناغم وفن نسوي يعتمد على أوزان بسيطة تقولها النساء بأصواتهن المرتفعة الشجية على شكل مواويل، والعيوع خاص بالنساء ولا يمكن للرجل أن يقوم به لأنه من اختصاصهن مثل هذا المقطع الذي يقال بجبل العلم: عيطت على مولاي عبد السلام يحضر فيها/مولاي عبد السلام مشيش مولاي/مول التشتا والمقام /أ حبيب الطلبة.

²⁵ عادة في موكب الطلبة يرتلون بشكل جماعي المقطوعة التالية: عاشورا عاشورا/والقديدة مختورة/عطيني بيضة بيضا/نزوق بها لوي/ولوي في الجنة/والجنة محلولة/حلها مولانا /والله يشعشع نورو.

وبما أن الجبليين عرف عنهم تمسكهم بالقوي بالشرعية والدين، كان احتفالهم بالمولد مناسبة مقدسة خاصة. فالاحتفال سواء في الزاوية أو المسجد لا يشكل استثناءً لأن الجبليون يجتمعون في الزاوية إذا ما كانت متوفرة أو يجتمعون في مسجد 'الدشر' لكن بنفس الطقوس والمراسيم، وغالباً ما يسبق يوم 'المولد' استعدادات تكون بدايتها قبل أسبوع من ذلك، معتمدين على عائدات الاحتفال بعيد المولد السابق مع فتح باب المساهمات أو الصدقات داخل الدشر لمن أراد، فتدبير 'الاحتفال' يكون بطريقة استراتيجية تظل متواترة عبر الاحتفالات المتكررة. إن الجبليون²⁶ يصومون هذا اليوم تيمناً به خصوصاً إذا ما صادف ذلك يوم الجمعة، فالاحتفال يبدأ بعض صلاة المغرب بحضور مجموعة من طلبة 'المسيد' وبعض الفقهاء، وأول ما يفعلونه أنهم يقرؤون رُبْعين من 'القرآن الكريم'، ثم بعدها يفسحون المجال لإنشاد قصيدة 'الهمزية' و'البردة'، وبعد الانتهاء يفسح المجال للفقهاء الذين يقدمون بعض الدروس تذكر بسيرة الرسول المعظم، فتفتح فسحة قصيرة لشرب الشاي مع بعض الحلويات، ثم يصلون العشاء في جماعة فيأكلون 'الكسكس' بالبصل والزبيب والحمص واللحم، وبعدها يفسح المجال 'للطلبة' وخصوصاً أصحاب الأصوات البهيجة الذين يقومون بترتيل قصائد جلييلة بالمناسبة.

فالإنسان الجبلي وبحكم اعتماده داخل القبيلة على الماء والكلأ من أجل إنعاش حياته والحفاظ على الرأسمال المادي الحيواني والنباتي غالباً ما كان يقلق في الأوقات التي يقل فيها المطر، "فالكواريث الطبيعية جعلته يشعر بالتقصير والذنب، فيهرع إلى المخزون الديني-الروحي، لمواجهة الكوارث/العقاب، بالتوبة النصوح وتوزيع الصدقات، والتيمن بذوي النفوذ الروحي لطلب الغيث وسقي البلاد والعباد"²⁷، فطقوس المطر بالنسبة للمداشر لا تختلف بين الفرق الثلاثة المشكلة للقبيلة (البرقوقيين-البحراويين-الغابويين)، فقبل القيام بالطقس كانت في القبيلة عملية دق الطبول بشكل متواتر من طرف مجموعة 'طبالين' نذير طلب الخروج من البيوت في يوم محدد عندما يتأخر الغيث قصد الاستعطاف، فالطبل كان في السابق غالباً هو الآلة التقليدية التي يعلن من خلالها فتح 'باب الطلب'، وقد اختفت هذه العادة من القبيلة بفعل تغيرات العالم المعاصر، ولما اختفت هذه العادة أصبح يوم الخروج يتحدد من طرف 'إجماعة' التي تجتمع في المسجد لتحديد يوم القيام 'بصلاة الاستسقاء' وطلب الغيث، ولما اندثرت أدوار 'الجماعة' لدى جباله بفعل تدمير البنيات التقليدية العتيقة للنظام القبلي أصبح 'النداء' يقام في المسجد يوم الجمعة، حيث يجتمع أهل الدشر للصلاة فيعلن الفقيه عن أنه في اليوم الفلاني يجب القيام 'بالطلب'، وعادة حينما يقيمون صلاة الاستسقاء داخل المسجد يخرجون جماعة إلى ساحة المسجد، فيقوم الفقيه بالدوران مع طلبته والحاضرون حول بناية

²⁶ جرت العادة بين الطلبة أن يضعوا الكحل في أعينهم، أما النساء فيتعطرن بالكحل والحناء، فيحضرن الوجبات المتميزة من إسفنج وفطائر وحلويات سكرية تذكيراً بحلاوة اليوم، ويشترون بعض من الثياب الجديدة من السوق الأسبوعي كصدقة يتصدقن بها وبعض الحلويات 'الفاكية' لتوزيعها على الأطفال في باحة المسجد، كما يكون اليوم عطلة لا دراسة أو عمل فيه، ويجمع من الصدقات والعائدات السابقة ما يوفر شراء بعض الرؤوس من الأكباش لذبحها على العشاء، وغالباً ما تذبح الأسر ديكاً على الغداء في انتظار ليلة الاحتفال.

²⁷ مجموعة من المؤلفين، التصوف السني في تاريخ المغرب: نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، سلسلة شرفات الزمن رقم 27، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، طبعة 2010، ص 246.

'الجامع' سبع دورات وهم في حالة شبه بدائية، حيث يزيل الرجال والطلبة قبعاتهم ونعالهم ويقلبون جلابيبهم بشكل عكسي تماماً، فيرفع الطلبة ألوأحهم على رؤوسهم ويكملون الدورات السبع²⁸، وعندما تكتمل السبع دورات مع ترتيب الدعاء،

يخرج الموكب من ساحة المسجد مباشرة نحو قبر ولي صالح، وهم على نفس الحالة؛ فيتقدم 'الطلبة' الصغار الموكب والألواح على رؤوسهم ثم الرجال فالمسنين وراءهم حتى يصلوا إلى قبر الولي الصالح فيجلسون على شكل دائرة، يقومون بقراءة القرآن ويبدأون بالدعاء طلباً للعطف والرحمة، ثم يقومون بتنظيف 'السيد/المزار' ويصبون المياه تبشيراً بالوفرة، فينهض الطلبة لبدء لعبة 'الخصب'، يبدأ الرش بالمياه طلباً لسقوط 'القطرة'، ويكون من حق الطلبة أن يرشوا بالمياه كل الرجال والشيوخ الحاضرين وهم يقومون بدورات سريعة على قبر الولي في عملية أشبه بالكرنفال، ثم يعودون من نفس الطريق، وإن وجدوا شخصاً رشوه بالماء، والمراد من هذه العملية هو طلب رحمة الله وغيثه، وعندما يصل 'الطلبة' إلى وسط الدشر، يبدأ طقس آخر يسمى 'طلب الرزق'²⁹.

2- المعتقدات المقدسة بقبيلة أنجرة

إن أي مجتمع كيف ما كان نوعه لا يخلو من معتقدات، فهي كثيرة ومتنوعة وتكون محفوظة في المتخيل الاجتماعي، ويبدو أن 'السحر' هو أعظم هذه المعتقدات، ولا نختلف مع علماء الاجتماع والإنسان الذين استنتجوا أن السحر هو "نتاج حاجات طبيعية مشتركة، كامنة في أعماق النفس البشرية المعقدة"³⁰ فهو ينتشر بكثرة ما بين الأفراد في قبيلة أنجرة، ينقسم إلى صنفين: سحر أبيض يهدف إلى الخير يقوم به الفقهاء الملتزمون، وسحر أسود يهدف إلى الشر يقوم به الفقهاء الخارجون عن الدين بالتعبير الجبلي، لكن في نفس الوقت هناك من الفقهاء من يقوم بالنوعين، لذلك فالسحر بالنسبة لجباله هو صراع ما بين الخير والشر، لكن هذا الصراع يفهمونه بطريقتهم الخاصة، يظهر ذلك في السلوكات اليومية التي يقومون بها، فكلما تأخر الذكر أو الأنثى عن الزواج ظن الجبليون أن ذلك نابع من نوع من أنواع السحر يسمى 'الثقاف'، وكلما ارتبط شاب بشابة رغم رفض والديه لها ظنوا أن ابنهم أصابه سحر آخر يسمى 'الربط أو التوكال'، وإذا كان عمل الجبلي عملاً متواصلاً ولا يحقق من خلاله قدر معين من الحياة المستقرة أو لا يستقر مع زوجته استقراراً تاماً ظن أنه 'متبوع' أو 'مقيوس' بسحر 'التابعة'، وكلما كانت حياته شقية كلما ظن أن 'العين' قد أصابته، أما إذا رأى أحداثاً تحدث له مع صاحبة أو زوجته أو حتى مع أخواته، فيظن أن أحد فعل له أعمال سحرية تسمى 'سحر التفريق أو الكراهية'، وكلما رأى أن أرضه لا تعطي ظناً أيضاً أن شخصاً قد عمل عملاً سحرياً ودسه في أرضه فيهرع إلى الفقيه ليعالج الأمر، وكلما رأى حيواناته تموت بلا سبب ظن أيضاً أن 'العين' أو 'التابعة' قد أصابتها، لذلك فإن السحر عند جباله سحر يمس الإنسان كما يمس الأرض والحيوانات بكونها مصدر الرزق يسعى دائماً للحفاظ عليها،

²⁸ عادة وهم يقومون بالدوران حول المسجد يرتلون ما نصه: يا رب الطف بنا في القرب عن عجل/والطف بنا يا مولانا بالقضاء والقدر/ أنت المُرّ الجلالة في كل نائبة/ وإرفق ما حل بنا من قلة المطر/ الأرض قد احترقت وللمولى افتقرت/ أغثها بالعفو واللف يا مقتدر.

²⁹ عادة يقوم الطلبة بزيارة كل المنازل وهم يرددون: 'أشتا تاتا تاتا والعرس د الحراتا'، وعندما يخرج أهل المنزل يرشونهم بالمياه فيعطونهم 'صدقة' عبارة عن دقيق أو شعير أو زيت أو بيض أو خبز تيمناً بالخير والبركة التي من المفترض أن تأتي بعد إكمال الطقس.

³⁰ مصطفى واعراب، المعتقدات والطقوس السحرية في المغرب، دار الحرف للنشر والتوزيع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى يناير 2007م، ص7.

ولا نجد لدى جباله هذه الأنواع فقط من السحر بل نعثر على بقايا أخرى من قبيل 'الحرز والحجاب' المصنوع للإنسان أو للحيوان أو للأرض، إلا أنه يمكننا بصفة عامة القول أن مجمل هذه الأصناف من السحر تدخل ضمن نوعين رئيسيين: الأول هو سحر أسود يهدف إلى الشر، والثاني مضاد له وهو سحر أبيض يهدف إلى طرد الشر، فالأول يكون سحراً هجوماً أما الثاني فهو تحصيني دفاعي.

أما فيما يخص 'العين' فإن جميع الأنجريين يؤمنون بوجودها، وهي ترتبط بالحسد بطريقة مباشرة، لذلك كان لابد للإنسان أن ينهج إلى عمليات وقائية؛ هذه العمليات الوقائية نجدها لدى جباله تنحوا منحنيين: الاتجاه الأول يتجه إلى المقاربة الدينية المحضة التي تنهل من القرآن والسنة بعيداً عن الأعمال المنهي عنها، في حين تتجه المقاربة الثانية إلى جهة أخرى تتقاطع مع الديني وتدخل في جانب 'الممارسات المحرمة'، ونقصد هنا أنها تذهب في اتجاه السحر والشعوذة، لذلك نجد الأفراد ينخرطون في هذه الازدواجية، إنه من خلال الملاحظة يبدو أن الأفراد لا يفرقون بين ما هو ديني أو غير ديني لأن التقاليد والأعراف قد اندمجت فأصبحت كل الطقوس الخاصة بالعين بالنسبة إليهم واحدة وكأن مصدرها ديني. فالعين هي عين الحسد والسوء في التمثل الشعبي، هذه العين إما أنها 'تقتل أو تصيب فتعيب'، لذلك لابد للإنسان أن يقدم 'البسمة والتسبيح والصلاة على النبي' كلما أراد أن يبدي إعجابه بشيء ما، فالعين حسب الاعتقادات قد تؤدي إلى المرض أو الموت أو إفلاس الإنسان في حياته المالية والمعيشية أو الأسرية أيضاً، لذلك فإن مختلف المبحثين عبروا بصراحة أن العين تقيس كل شيء، حتى الماشية والفلاحة، لذلك خلقوا تحصينات 'تكتب على الورق' أو 'تزين الجسد' أو 'تعلق في المنازل' أو 'تبخر'، لكن مجملها يتعلق 'بالحجاب والحرز'.

بل أكثر من ذلك، فالأنجريون لا يؤمنون بالسحر والعين فقط وإنما يؤمنون بالمعتقدات الخاصة بالجان والعفاريت بقوة، فالجنون لهم سلطة على الإنسان والمجال، وما دام الجبل مجالا شاسعا فلا بد للإنسان أن يأخذ كل الحذر، فطيلة المقابلات التي أجريناها استقيناً مجموعة من الحكايات المتعلقة بهذه المعتقدات، فالجنون والعفاريت يشغلون في غالب الأحيان وقتاً ليس بالهين في تفكيرهم اليومي، وغالباً ما يكون³¹ لنا عن عفاريت وجنّون تسكن الأراضي والمنازل الخالية والأماكن، إن الجان بهذا المعنى "يوجدون في مختلف فضاءات الأرض، وبذلك فهم السكان والملاكون والحراس، وحفظة الأرض، والغابة، والجبال، ومجاري المياه والمستنقعات"³².

وغير بعيد عن المعتقدات الخاصة بطبيعة الجان والعفاريت، يؤمن الأنجريون بمعتقدات أخرى من بينها 'اللعة'، فهذه الأخيرة تتواجد في كل المجتمعات، ويعود تاريخها إلى ديانا قديمة، لكن مع دخول الإسلام تم تحيينها، ويمكن القول أننا نجد لدى الأنجريين ثلاث من الصيغ الخاصة باللعة،

³¹ يحكي مبحث من ربيع البرقوقيين أن الناس في أنجرة يهبون الجن كثيراً، فعندما يريد أحد ما أن يبني منزلاً على أرض ما لابد له في البداية أن يذبح دجاجة أو دجاجتين أو خروف حسب الاستطاعة حتى تمر عملية البناء بشكل عادي، وعندما يكتمل المنزل لابد بعدها أيضاً من ذبح خروف أو دجاجة حتى يسيل دمها وسط المنزل، وهذه العملية تكون لهدف واحد هو طرد الجنون الذين من المفترض أن يكونوا قد استوطنوا الأرض أو سكنوا المنزل، لأن هناك اعتقاد سائد مفاده أن الجنون تتغذى بدماء القربان الذي يسيل على الأرض، بل أن أهل أنجرة لا يكتفون بذلك فقط بل يقطعون الشك عند إنهاء المنزل من البناء، فيقيمون حفلة دينية يقوم بها 'الطلبة والفقهاء' حتى تكون فاتحة على دخوله وحتى يعرف الجان أن المنزل سيسكنه الإنس فيرحل.

³² مجموعة من المؤلفين، أبحاث في السحر، ترجمة محمد أسليم، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، طبعة 2007م، ص 108.

من بينها تلك الخاصة 'بالأولياء والمجاذيب' والتي تطفوا وتطغى حسب ما لاحظناه في المقابلات التي قمنا بتحليلها، فعندما يقف الإنسان في حضرة ضريح أو قبر ولي أو مجذوب فيجب أن 'يسلم نيته' أو يكون قصده خيراً، أما إذا نوى الشر أو تحدث في الولي بكلام نابي أو غير محترم فإنه لاشك حسب المعتقد سيتعرض للشر وستعصف به اللعنة فيما لا يحمد عقباه، فكثير من الحكايات صادفناها تتحدث عن أفراد قاموا بمس الولي أو سرقوا من ضريحه شيء أو مسوا قبره بشيء أو غير ذلك من الأفعال، وكل ما سيصيبه بعد ذلك في حياته اليومية يتصوره الأفراد كما لو أنه لعنة من ذلك الولي، لكن هذه الأخيرة تضع الإنسان بين خيارين إما أن يموت أو أن يصاب في أحد أعضاء جسمه فيبقى طول حياته مصاباً. بالإضافة إلى ذلك نجد اللعنة الخاصة بالجان والعفاريت، واللعنة الخاصة بالحيوانات التي تبدو شبه محترمة، هذه الأصناف الثلاث تبدو هي المسيطرة على تفكير الأفراد داخل المجتمع، ولا نجد أصناف غيرها، يبقى الإشارة أن لعنة الأجداد لا تدخل لدى الأنجيين في النوع الذي نتحدث عنه، بل تدخل في قضية أخرى يعطيها جباله الكثير من الاحترام تتعلق بمعتقد 'السخط والرضا' والذي يتعلق بالوالدين أو الأجداد حسب درجة التأثير، فالسخط هو جانب آخر من اللعنة لكنها تكون من المقربين، وغالباً ما تتعلق 'بالآباء' من جهة، ثم الأجداد من جهة ثانية، فالأوامر التي يعطيها الآباء الطاعنين في السن للأبناء أو غيرهم يجب أن تحترم وتنفذ بالحرف وإلا كان السخط مصيرهم، فالجبلون يعون جيداً ما لقيمة السخط في الحياة لذلك يتجنبونه.

خلاصة:

إن ما يمكن أن نخلص إليه في هذه الورقة، أن أنماط وتجليات التدين بقبيلة أنجرة متعددة ومتنوعة أهمها تقديس الأولياء والزوايا ثم بعض الظواهر الطبيعية مثل الكراكير والصخور والقبور والأشجار ومنابع المياه وأراضي مملوكة/المرجة، وبعض البقايا وآثار 'المساجد' القديمة، ويمكن القول أن تقديس هذه الأنماط يعود كما لاحظنا إلى الاعتقادات السائدة التي يؤمن بها جباله، وأغلب أسباب هذا التقديس تعود إلى الوظائف الاجتماعية والعلاجية لتلك الظواهر. في نفس الوقت يمكن أن نقول بأن الممارسات التي وجدناها وخصوصاً ما يتعلق بالعمارة والعنصرة والحاكوز وبنائير والعام أجدي وعاشوراء وطقوس الاستمطار تشكل بنية واحدة؛ فجل الأفراد يعتبرون أن هذه الممارسات تنهل من الدين وتعود إليه دون الوعي بأن هذه الممارسات جلها ترسخت من العادة والعرف والتقليد في المتخيل الاجتماعي الجبلي ولا ارتباط لها بالدين الرسمي. نفس الشيء فيما يخص المعتقدات التي يعتقد بها الأفراد من سحر وعين وجان ولعنة وغيرها، فهي معتقدات تعود إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية من جهة، وطبيعة المجال الجبلي من جهة ثانية.

غير أنه يمكننا القول أن التدين الشعبي هو بنية، بل نظام مكتمل الأطراف؛ فالممارسات هي من يعطي معنى للأنماط وتجليات التدين الموجودة بأنجرة، هذا المعنى المتجدد يجعل الأفراد يؤمنون بجودها فتصير معتقداً راسخاً، والعكس صحيح، كما نحسب أن نشير أننا ركزنا فقط على بعض الجزئيات دون أن نفصل في جميع الأنماط والممارسات والمعتقدات، ولا يمكن مطلقاً أن ندعي أننا أحطنا بكل شيء، فالتدين الشعبي موضوع أكبر من أن يختزل في ورقة أو دراسة واحدة، عسى أن تأتي مناسبة أخرى لنسلط الضوء على الجزئيات الأخرى.

البيبلوغرافيا:

1. دوتي إدموند، طبعة 2011م، مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مرسوم، مطبعة أبي رقرق، الرباط-المغرب.
2. موليراس أوجيست ، طبعة 2013م، المغرب المجهول: اكتشاف جبالة، الجزء الثاني، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب.
3. باسكون بول، 1986م، الأساطير والمعتقدات بالمغرب، ترجمة مصطفى المسناوي، مجلة بيت الحكمة، عدد3، السنة الأولى، أكتوبر 1986.
4. أورياطي خينارو، 2010م، الروابط الدينية بجمالة ومختلف طوائف الشرفاء: الزوايا والأضرحة، ترجمة عبد العزيز العيادي العروسي، مطبعة سبارتيل، الطبعة الأولى 2010م.
5. ايكلمان ديل، 1991م، الإسلام في المغرب، ترجمة محمد أعيف، سلسلة تاريخ ومجتمعات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى 1991م.
6. خلوq التمساني عبد العزيز، 1996م، جوانب من تاريخ جبالة المعاصر: القائد أحمد الريسوني وإسبانيا، منشورا سلكي إخوان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى 1996م.
7. غيرتز كليفوردي، 1993م، الإسلام ملاحظاً: التطور الديني في المغرب وإندونيسيا، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1413هـ/1993م.
8. مجموعة من المؤلفين، 2010م، التصوف السني في تاريخ المغرب: نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، سلسلة شرفات الزمن رقم 27، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، طبعة 2010.
9. مجموعة من المؤلفين، 2007م، أبحاث في السحر، ترجمة محمد أسليم، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، طبعة 2007م.
10. جندوبي محمد، 2004م، الأولياء في المغرب: الظاهرة بين التجليات والجذور التاريخية والسوسيوتاريخية، منشورات كنال أوجوردوي، مطبعة دار القرويين، فاس-المغرب، طبعة 2004.
11. داود محمد، 2009م، تاريخ تطوان، المجلد الحادي عشر، منشورات تطاوين أسمير، تطوان-المغرب، طبعة 2009.
12. الهراس المختار، 1988م، القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، مطبعة الرسالة، الرباط-المغرب، طبعة 1988م.

13. واعراب مصطفى، 2007م، المعتقدات والطقوس السحرية في المغرب، دار الحرف للنشر والتوزيع، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الأولى يناير 2007م.

1. Edouard Montet :le culte des saints dans L'Afrique du Nord et plus Spécialement Au Maroc ; Librairie George & Cie ; Genève ; 1909.
2. Edward Westermarck :Marriage Ceremonies in Morocoo ; Curzon Press ; London (sans date).
3. Emile Dermenghem : Le Culte des Saints dans L'Islam Maghrebin ; Édition Gallimard ; paris 1954
4. Eva Evers-Rosander : Some Wedding Customs in Qbila ANJRA Now (1976-1987) and Then (1900-1910) Comparisons and Reflections Based on Westermarck's ; Books "Westermarsk et a societe Marcaïne" Université Mohammed 5 Faculté des litters et des Sciences Humaines ; Colloques et Seminaires N° 27 ; Imprimerie El Maarif Al Jadida ; Rabat-Maroc.
5. Henri Basset :Le Culte des Grottes au Maroc ;Ancienne maison Bastide/Jourdan ; édition Carbonel ; Alger ; 1920.

Doi: doi.org/10.52133/ijrsp.v2.19.8